جامعة زيان عاشور الجلفة
كلية الآداب واللغات والفنون
قسم اللغة العربية وآدابها

الدكتور: ميلود حميدة
الفئة المستهدفة: ثالثة ليسانس
تخصص: النقد النسقي
السداسي الخامس

الذات العبر–فردية في البنيوية التكوينية عند لوسيان غولدمان

لقد حاولت البنيوية من خلال فضاءاتها النقدية وكل تحولاتها أن تنغلق على النص، وتقدم دراسات متنوعة لشكلية الإبداع، وعزله تماما عن سياقاته الاجتماعية والتاريخية والنفسية والثقافية وغيرهم، وفي هذا انحسرت في رواقٍ ضيقٍ شكّل عقبةً صعبةً في استنطاق مكنونات النص الإبداعية، مما جعلها تبحث عن توازن تقف عليه، ويسير بها على مساحات تشكّلٍ جديد يمنح فرصة لبعض الأطر أن تساهم في تحليل النص والانغماس داخله، ولذلك ظهرت البنيوية التكوينية التي حاولت أن تجسّد ذلك التوازن، وأن تخلق تفاعلات جديدة لهذا الشكل مما يتيح البحث عن البنيات العميقة والسطحية المؤسسة لأي فضاء بشكل يساهم فعليا في إبراز كيمياء الإبداع التي تتراوح بين الشكلية وما يحيط بها من مجالات متنوعة،

أي الانتقال من المساحات الضيقة إلى مساحات أكثر اتساعا في معرفة النص، كما أسهم هذا الفضاء الجديد في بعث روح علمية اجتماعية داخل النص، وذلك من خلال خلق تفاعل بين النتاج والفئة الاجتماعية، بحيث لا يكون هذا النتاج انعكاسا مباشرا للواقع الاجتماعي، بل يتضمن بنيات ذهنية داخل المجموعة الاجتماعية.

1- ملامح وأبعاد البنيوية التكوينية

تعتبر البنيوية التكوينية منهجا علميا يهدف إلى تجاوز الحدود الشكلية للبنيوية، ويسعى للوصول إلى تحقيق وحدة بين الشكل والمضمون، حيث استفاد هذا المنهج من مجموع البحوث الفلسفية والنفسية وعلم الجمال وعلم الاجتماع والتاريخ، وهذا ما أشار إليه لوسيان غولدمان في عدة مباحث ومقالات، حيث انطلقت االبنيوية التكوينية من الفرضية القائلة بأن كل حالة من حالات السلوك الإنساني هي محاولة الاستجابة الدالة لموقف معين وبالتالي فإن (الحالة السلوكية) تميل نحو خلق نوع من التوازن بين الذات الفاعلة والموضوع الذي تلقى الفعل، ومنه نستكشف مدى الترابط بين تلك الجدلية في وجود وقائع وشخصيات غير مستقرة، تقف دائما عند متضادين متناميين، وهكذا فالواقع البشري يبرر نفسه من خلال عمليات ذات اتجاهين متضادين: هدم البنى القديمة وإنشاء بنى كلية جديدة قادرة على خلق توازنات يمكن أن ترضي مستجدات الجماعة البشرية التي أنتجتها.

ويمكن استخلاص البعد التفاعلي بين المبدع والنص والجماعة في البنيوية التكوينية حين أشار غولدمان إلى أنها مثّلثْ حول هذه النقطة تغييرا كاملا في الاتجاه، باعتبار أن فرضيتها الأصولية هي على وجه الدقة أن الطابع الجماعي للإبداع الأدبي آتٍ من أن بنى عالم المبدع متجانسة مع البنى العقلية لبعض الجماعات الاجتماعية أو هي على علاقة واضحة معها، في حين يملك الكاتب على مستوى المضامين، أي على مستوى إبداع عوالم خيالية تحركها هذه البنى، حرية كاملة، ومن ثمّ، فإذا كانت البنيوية التكوينية تتشكل من بعدين هامين يجعلان النص الأدبي في تحليله لا ينغلق على نفسه كما هو في البنيوية الشكلية أو ينفتح إلى درجة استبعاد البنية كما هو في الاتجاه السياقي، فإن المنهج البنيوي التكويني وبعيدا عن التفسيرات الفردية، هناك من يراه أنه حلٌّ وسطٌ بين المناهج النقدية السياقية التي تفسر النص استنادا على خارج النص، والمنهج البنيوي الذي يغلق النص على نفسه، ومن ثم يمكن أن نتتبع منهج البنيوية التكوينية من خلال ما يلي:

1- دراسة ما هو جوهري في النص، وذلك عن طريق عزل بعض العناصر (الجزئية) من السياق، وجعلها كليات مستقلة.

2- إدخال (العناصر) الجزئية في (الكل)، علما بأننا لا نستطيع الوصول إلى كلية لا تكون هي نفسها عنصرا أو جزءا، فجزئيات العالم مرتبطة ببعضها البعض، ومتداخلة بحيث يبدو من المستحيل معرفة واحدة منها دون معرفة الأخرى، أو دون معرفة الكل.

3- دمج العمل الأدبي في (الحياة الشخصية لمبدعه).

4- إلقاء الضوء على (خلفية النص) الاجتماعية، وذلك بدراسة مفهوم (العالم) عند الجماعة التي ينتمي إليها الكاتب، والتساؤل عن الأسباب الاجتماعية والفردية التي أدت إلى هذه الرؤية كظاهرة فكرية عبّر عنها العمل الأدبي في زمان ومكان محددين، وهذه الرؤية هي ظاهرة من ظواهر الوعي الجمالي الذي يبلغ ذروة وضوحه في نتاج المبدع.

وعليه تكون البنيوية التكوينية مقاربة سوسيولوجية وظيفية، تهدف إلى دراسة الظواهر الأدبية والفنية والثقافية فهما وتفسيرا، بغية رصد رؤى العالم، من خلال عقد تماثل ضمني بين الأدب والمجتمع، مع استقراء الأوضاع الجدلية التي تحكمت في توليد البنية النصية الداخلية، وهي في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة منهج يستهدف تفسير كل إنتاج إنساني، في اعتماد على تحليل البنيات، وهي تتوخى بلوغ الجماعات الاجتماعية، لفعاليتها الحقيقية، في الابداع والنقد الأدبيين.

وعلى هذا الأساس فالفرق بين المنهج البنيوي التكويني والمناهج التقليدية، يتجلى في النقاط التالية:

- عدم إيلاء أهمية خاصة في فهم العمل الأدبي للنيات الواعية للأفراد، وللنيّات الواعية للمبدعين، لأن الوعي لا يشكل سوى عنصر جزئي للسلوك البشري، فعلى علم اجتماع الأدب أن يعامل النوايا الواعية للكاتب على أنها مجرد علامة من بين علامات عديدة، وعلى أنها نوع من التأمل في العمل الأدبي. وعليه أن يصدر حُكمه على ضوء النص دون أن يعطيه أدنى امتياز.
- عدم المبالغة في أهمية الفرد حين القيام بالتفسير الذي هو بحث عن الذات الفردية أو الجماعية التي اتخذت البنية الذهنية المنتظمة للعمل الأدبي بفضلها طابعا وظيفيا ذا دلالة، فالعمل الأدبي يكاد يمتلك وظيفة فردية ذات دلالة بالنسبة لكاتبه، إلا أن هذه

الوظيفة الفردية غالبا ما تكون غير مرتبطة بالبنية الذهنية التي تنظم الطابع الأدبي الخالص للعمل.

2- الأدوات الإجرائية للبنيوية التكوينية

لقد تعددت البحوث والدراسات النقدية التي تأخذ من مقولات وبحوث غولدمان، وتحاول أن تجسد معالم الدخول إلى تطبيق هذا المنهج، حيث هناك من ركز على ثلاث مبادئ، أو خمسة مبادئ، أو عشرة مبادئ، فسامي نايير يصنفها إلى الكلية، هوية الذات والموضوع، الرؤية للعالم، الوعي الممكن، الذات العبر فردية، تماثل البنيات، الشكل، الفهم والتفسير، وهناك من أضاف أكثر من ذلك أو أقل، لكن الأغلب من الدراسات لم تتجاوز المحاور الرئيسية لهذه المبادئ: البنية الدالة، الفهم والتفسير، الوعي القائم (الفعلي) والوعي الممكن، الذات العبر فردية، التمساك والانسجام، التماثل، النزعة الشمولية، الرؤية للعالم.

لقد رأينا أن غولدمان يضع تناغما معينا بين المقولات الفسلفية الكبرى في البنيوية التكوينية، وبين الأدوات الإجرائية التي تعمل على تحليل النص الأدبي، فالمقولات هي البعد الفلسفي للأداة الإجرائية، مثل مقولة "الذات العبر فردية"، أو "الشمولية"، "هوية الذات والموضوع"، لتبقى بعد ذلك "البنية الدالة، والفهم والتفسير، والوعي الفعلي والقائم"، التماثل، التماسك والانسجام" وغيرهم أدوات إجرائية يستخلص من خلالها الباحث "الرؤية للعالم" من خلال العمل محل الدراسة، وذلك بعد استنطاقه لمكنونات المقولات الفلسفية وفهمها فهما جيدا، كما أن هناك من قدّم بعض المقولات لكنه لم يدرجها ضمن الأدوات الإجرائية، فالدكتور جمال شحيذ يضيف مقولة "الوعي الجماعي"، ويوظف مبدأ "التوازن"، ضمن مفهوم البنية معتبرا أن البنية تقيم توازنا بين الفاعل وفعله أو بين الأشخاص والأشياء، وهذا ما جاء في مقال عباس محمد رضا البياتي وإيناس كاظم شنباره الجبوري، حيث نجد أن "التوازن" من أهم المبادئ التي قامت عليها البنيوية، ولا يتحقق إلا في ضوء العلاقة المتبادلة بين الذات الفاعلة والموضوع المفعول، وهذا أهم ما يميز البنيوية التكوينية من حيث تشديدها على الذات وليس الموضوع فقط، فعلى مستوى الأدب لا ينظر إلى النص بمعزل عن المؤلف، بل ينظر إلى النص بوصفه بنية.

وعلى هذا الأساس نستخلص ترتيبا علميا منهجيا لتدرّج هذه المستويات، فليس من المنهجي في شيء أن يتطرق الباحث إلى رؤية العالم أولا دون أن يتطرق إلى درجات الوعي أو

مفهوم البنية قبل ذلك، كما أنه ليس من الواجب البحثي أن يتحدث عن الفهم والتفسير دون أن يعي البنية الدالة منتبها لعلاقة البنية الصغرى مع البنية الأوسع والأشمل، وكل تلك الترتيبات المعرفية بانسيابها تصل جميعا إلى فهمنا للرؤية العالم في العمل الأدبي، خلافا لما قامت عليه الكثير من الدراسات حيث لم تهتم بهذا الترتيب، كأن تقف عند الرؤية للعالم أو الوعي القائم والممكن ثم يأتي إلى البنية الدلالية أو الفهم والتفسير.

3- الذات العبر-فردية Sujet transindividualité في البنيوية التكوينية

لقد خصص لوسيان غولدمان لمفهوم الذات العبر-فردية أهمية كبيرة في فضاء استكشاف النص عن طريق البنيوية التكوينية، حيث تعتبر مقولة "الذات العبر-فردية" النقطة الأساسية التي فتحت نوافذ البنيوية على المجتمع، ليس كأفراد يشكلون جماعة، بل في خصوصية هؤلاء الأفراد داخل نسقهم الاجتماعي الجماعي، وقد أكد على هذا المفهوم في مواقع متعددة، وأشار إلى أن أهم اكتشاف للبنيوية التكوينية، بل الاكتشاف الأساسي لها هو محتوى الذات العبر- فردية (أو الجماعية)، والصفات البانية لكل سلوك ثقافي، عاطفي أو عملي لهذا المحتوى، وهذا يعني أن بنية الفئات الاجتماعية تتدخل في بنية السلوك الثقافي والوجداني والعملي لهذه الذات، فتتجاوز الفرد ووعيه بذاته، إلى ما ينتجه السلوك الجماعي أي العبر فردي، لأنه يؤثر في سلوك الفرد عن وعي أو بدون وعي، لذلك يقول غولدمان إن «قطاع الذات العبر فردية للحياة الإنسانية يشمل كل شيء، داخل سلوك الأفراد، اجتماعيا وتاريخيا، بشكل مباشر أو غير مباشر، وهذا يعني بالخصوص كل ما يتعلق بعمل الأفراد في العالم الطبيعي والاجتماعي (الغذاء، الحمية، تنظيم العلاقات البين- إنسانية، الثورات، الحروب، إلخ..، وانطلاقا من هنا، يشمل هذا كل الحياة الثقافية، والمتعلقة بموضوعنا، وبكل إبداع أدبي صالح، وعليه يميّز غولدمان بين ثلاث مستويات من الوعي داخل أبعاد الذات العبر-فردية:

أ- **لا وعي الذات عبر-الفردية** (الليبيدو): يقول غولدمان إنه يتشكل من الرغبات والتطلعات التي لا تستطيع الحياة الاجتماعية تحملها والتي يجب أن تكون مكبوتة. لقد أظهر "فرويد" وأتباعه الكثير من السلوكات (أحلام، هفوات، هذيانات) تبدو دالة بشكل صارم إذا أدخلناها في كلية بيوغرافية وتكوينية تحتضن اللاوعي المكبوت، و بالاضافة إلى انفتاح البنيوية التكوينية على التاريخي والاجتماعي، يجسد غولدمان عبر ما وصل إليه فرويد في

خصوصية بحثه حول الذات الإنسانية معالم تلك الذات على المجتمع أو الجماعة، فهو يحقق النظرية النفسية على رغبات وتطلعات الجماعة بشكل كلّي شامل من خلال دراسة الوعي الجماعي لتلك الفئات. أي ما تبطّن في الداخل من رغبات وآمال وماضي مشترك يجعل من تلك الفئة تتجه بشكل كلي نحو ردود أفعال معينة، وتكتسب تكاملا لا تؤثر فيه بعض المكتسبات الخارجة عنه.

ب- **الوعي الفردي:** ويؤكد على أنه يشكل قطاعا أكثر أو أقل أهمية، لكنه قطاع يختص فقط بالسلوك وبدلالته الموضوعية، حيث يحقق الوعي الفردي لدى غولدمان الاتجاه الموضوعي للذات العبر فردية، فهو الوعي الذي يميز الأفراد عن بعضهم البعض من خلال الخصوصيات المتمايزة التي لا تخرج عن فضاء الجماعة، لأنه الوعي الذي يحقق التوازن بين الأفراد في مختلف تطلعاتهم ومفارقاتها وتحولاتها، لكنه يبقى داخل السياق العام لحركة الفئة الاجتماعية.

ج- **ضد الوعي،** وهو الذي يتشكل من البنيات الثقافية، الوجدانية، التخييلية والعملية لوعي الأفراد. فضد الوعي هو إبداع للذوات العبر فردية و لها على المستوى النفسي وضعٌ مماثل للبنيات العصبية أو العضلية على المستوى الفيزيولوجي. ويختلف عن اللاوعي الفرويدي في المساحة التي نجده فيها أنه غير مكبوت، ولا يحتاج للتغلب على أي مقاومة لكي يصبح واعيا، لكن فقط يسلط الضوء عليه من خلال التحليل العلمي، فضد الوعي هو الذي يحقق للفئة الاجتماعية تفردا معينا من خلال بنياتها الثقافية التي تعطي نبضات نحو الاختلاف من خلال تجسيد وعي بشكل يختلف عن وعي الجماعة المتداول والمتواصل، لذلك فهو ضد الوعي القائم، مما يظهر لدينا أنه هو الوعي الممكن، لأنه لا ينبجس إلا من خلال التحليل العلمي.

وعلى هذا الأساس يقدم غولدمان هذا البعد في كونه من خصوصيات البنيوية التكوينية التي تعتبر البنية ليست جزءا مستقلا عن الذات الإنسانية بل هي صفة خاصة لسلوك الذات (الفردية- الليبيدو- العبر فردية) باعتبارها فعّالة ومبدعة، وذلك لأنها تقف على تطوير سلوكاتها لتتجاوز العراقيل التي تواجهها من جهة، وترتبط بتحولات أكثر فاعلية نحو تجسيد طموحاتها، فكل مجموعة اجتماعية تُشكّل ذاتا عبر فردية تميل إلى حلّ عدد أكبر أو أصغر من المشكلات، ويعني ذلك تحويل الواقع إلى واقع أكثر ملائمة لتطلعاتها واحتيجاتها، على

أن يكون مفهوما أن كل فرد هو جزء من بعض المجموعات الاجتماعية، وهذا يعني أنه جزء من بعض الذوات العبر فردية.

المراجع:

لوسيان غولدمان: البنيوية التكوينية وتاريخ الأدب

لوسيان غولدمان: مقدمات في سوسيولوجيا الرواية

صالح سليمان عبد العظيم: سوسيولوجيا الرواية السياسية

محمد عزام: فضاء النص الروائي

سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة

Sami Naîr : Forme et sujet dans la création culturelle

Lucien Goldmann : science humaines et philosophie